رسالة الشباب العربي

•

ان الشباب العربي على موعد مع المستقبل. فقد القيت على عاتقه تبعة مصير البلاد العربية وتحقيق اهدافها . فما هي العدة التي اعدها لذلك اليوم حتى يضمن للعروبة مستقبلها ويسير بها في طليعة الامم ، للمساهمة في التاريخ مساهمة حرة ، ولخلق جزء من حضارة العالم؟ وان نظرة واحدة الى التاريخ تبين لنا أن العروبة التي ندين بها كانت ولا تزال قادرة على خلق جزء من حضارته . هذه حقيقة معروفة مسلم بها لا يدخلها شك ولا يداخلها جدال . فلننصرف اذاً الى مشاكل حيوية حجبت عن عيوننا منذ ولى العرب وجوههم نحو الماضي وركنوا الى المعيشة في احضانه فاستولى عليهم السبات العميق . وقبل ان ألج هذا الموضوع لا بد لي ان آتي بايجاز على الاسباب الاساسية التي ادت الى تأخر العالم العربي بعد ان حمل نبراس العلم والحضارة طيلة اربعة قرون من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر .

طرأ على العقلية العربية في القرون التي تلت العصر العباسي الذهبي عوامل شتى ادت الى تحجرها وآلت من هذا التحجر الى الفشل . واكتمل هذا التحجر بمجيء السلاجقة الذين اكتسحوا

الشرق العربي في القرن الحادي عشر ونشروا سلطانهم عليه . كان همهم الاول توطيد دعائم ملكهم فأسسوا المدارس النظامية واوجدوا مناهج للتعليم غايتها تهيئة الرجال لوظائف الدولة . فتكالب الناس عليها وعلى الوظائف تكالبهم عليها في عهد الانتداب الغابر . وقد ندد الغزالي بمناهج التعليم هذه وبغايتها المادية النفعية وبالروح التي احدثتها بين علماء عصره فقال :

«فرأى الناس عز العلماء واقبال الائمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم . ومنهم من حرم ، ومنهم من انجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين وبعد ان كانوا اعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال عليهم » .

وحاول الغزالي ان يربط مناهج التعليم هذه بفكرة روحية تبعث الوعي الاخلاقي في الفرد فلم يفلح لكثرة المرتزقة بين رجال العلم . وزاد في الطين بلة تفشي الانتهازية الكلامية بين الفقهاء وقادة الفكر وطغيان المصلحة الفقهية والرسوم الجدلية على الابحاث العلمية وتسلط الكلام والمتكلمين على جميع نواحي العلم . فانصرف العرب عن الجوهر الى العرض وعن الروح الى المادة ، فتم تحجر العقلية العربية ولم تنحل بعد . وقد غفل العرب في فعلهم هذا عن حقيقة اساسية في تاريخ الحضارة والعمران وهي ان ايام الشعب المثمرة المنتجة النافعة تصبح معدودة حالما يقتصر اهتمام افراده على

ما يعود عليهم مباشرة بالمنفعة المحسوسة الملموسة. ولم تفشل الحضارة العربية آنئذ لفقدان الذكاء والفطنـــة والمواهب لدى العرب او لنقصها بل لفقدان الاخلاق الفردية والاجتماعية وفسادها ، ولله در شوقي القائل :

وانما الامم الاخـلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ولم تفسد الاخلاق الفردية والاجتماعيـــة الا لانصراف العرب عن الجوهر الى العرض ، وعن الروح الى المادة .

واليوم تعترض الشباب العربي مشاكل شتى . واذ أتصدى للبحث فيها بمنتهى الصراحة لا ابتغي تثبيط العزائم بل استفزازهـا لاني اؤمن بالشباب العربي وأثق به ولأني مقتنع بانـــه كفوء لاية تبعة او مسؤولية .

يعيش الشباب العربي اليوم في بيئة تعوّدت النظر الى الماضي والتغني به دون ان تستفيد من وحي التاريخ شيئاً . وهي أشبه بجندي تجاوز السن فاحيل على التقاعد لا عمل له سوى التحدث عن المعارك الحربية التي خاض غمارها وعرض الاوسمة التي نالها وانتظار لاجل. وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد ؛ جميع حياته وراءه ،وليس امامه إلا القبر . فعلى الشباب العربي ان يولي وجهه نحو المستقبل وان يعقد النية على ان يكون مستقبل العرب خيراً من ماضيهم . واذا اقتضت الحال أن يخرج على الجيل القديم في بلده فليفعل لأن بركة الاجيال المقبلة خير من بركة الوالدين .

وقد تيسرت للشباب العربي في الآونة الاخـيرة فرص عديدة فاستفاد منها الى حد . اتقن مثلاً صناعة الطب ولمع في مهنة المحاماة

وبرز في الهندسة ونال قسطاً وافراً من النجاح في كل ما انتحله وتعاطاه . وليس في هذا مدعاة للعجب لان الشباب العربي يفوق غيره فطنة وذكاء.غير انه لا يزال يتلمس طريقه في الحياة ويظهر في أغلب الاحيان مغلوباً على امره ، مشتت الافكار قلق البال عديم الثقة بنفسه تتضاربه الاهواء والمذاهب الفكرية . ولعدم ثقته بنفسه تراه يهوى المديح ويجفل من النقد الصريح . يدخل معترك الحياة معتنقاً مبدأ من المبادىء فلا يلبث ان ينحرف عنه بفعل العوامل المادية . ولعل السبب في ذلك ان لديه جميع صفات الرجولة الا واحدة — تلك التي تعطي الحياة معنى وحقيقة ، فتبدد من حولها غيوم الشك وتزيل من امامها عقبات التذبذب والتردد — تلك الصفة هي متانة الاخلاق وصلابة العقيدة . ولا تتم له الا اذا قامت نصب عينيه قبلة فكرية روحية يولي وجهه نحوها فتوحد قوى نفسه وتستحيل بها حياته من وجود معدوم الغاية والانسجام الى حياة ذات غاية ووئام .

وقد عرف الاعداء موطن الضعف في الشباب العربي فأخذوا يهاجمونه من تلك الناحية وينصبون امامه قبلاً متعددة ادت الى التشويش والتلبيس وكلها دخيلة تنبت من غير ارضه، وجميعها بعيدة عن ذوقه وميوله متنافية مع نفسه وروحه . فمن شيوعية روسية ، وفاشستية ايطالية ، ونازية المانية ، وديمقراطية انجلوسكسونية كلها تنبع من غير بئره وتجري من غير عينه . وانا مستعد ان ادين باية فكرة من هذه الفكر وان اعتنق اي مذهب منها ان كانت اصولها نابتة من تربة عربية . وانا لا احجم عن ان ادين بالشيوعية مثلا ان

كانت من تربة عربية ، اوأن أتعلق باهداب الفاشستية او النازية ان كانت بذورهما عربية ، وتبعاً للمبدأ نفسه ارفض الديمقراطية اذا لم تغذ جذورها تربة عربية .

ورب معترض يقول : ما هذا التعصب وما هذه المغالاة ؟ وهل تخضع الفكرة لحدود جغرافية وتتعرض لتعريفة جمركية و تحتاج الى جواز سفر في ذهابها وايابها ؟ كلا ، فالفكرة عالمية في اساسها وطبيعتها — لا تعرف حدوداً جغرافية ولا تعترف بها ولا ترضخ لتعريفة جمركية ولا تحتاج الى جواز سفر . غير اننا سنخون الامانة التي وضعت في عنقنا ان قنعنا بالتقليد واكتفينا بعيشة الطفيلية الفكرية ، نعيش على الغير فكراً ولا نقدم للعالم شيئاً . وسندغل تراثنا ونغدر به ان رضينا بالفتات الفكري الذي يتساقط عن موائد غيرنا بعد ان كانت موائدنا مكدسة وكؤوسنا ريا . وان ما ينعم به العالم الآن من مثل عليا وآمال مصدرها شرقنا جرت على افواه انبيائه وشفاه رسله . ولا يغربن عن البال ان القدس وبغداد تسطعان في الفلك الفكري بنور يضاهي في لمعانه وبهائه نور اثينا وروما .

ولا بد للانسان في ارتقائه ان يبلغ درجة يرى فيها الحقيقة بعين اليقين ، فيدرك عندئذ ان التقليد انتحار ، ولا يقدم على الانتحار الا المجنون او اليائس . وقد طغت موجة الانتحار الفكري هذا على الادب كما طغت على السياسة . وعندي انها لم تطغ على السياسة الا بعد ان طغت على الادب وطمت عليه كما طغت على اكثر نواحي حضارتنا . فنحن ابداً مقلدون وبالنتيجة مقبلون على الانتحار . فبيوتنا

مبنية على طراز اجنبي وجدرانها محلاة بزخارف غريبة . وآراؤنا واذواقنا ترجّع آراء الغير واذواقهم كما يرجع الغار نهيق الحمار .

فيما انا اعد هذه الكلمة وقد انتابني بعض الضجر مما انا كاتبه توقفت عن الكتابة وتناولت لفافة من التبغ لأحجب عني بدخانها جيوش اليأس. فوقع نظري على غلاف احدى المجلات الحديثة وقد ظهرت على الغاشية منه اعلام الدول العربية بالوانها الاربعة فترحمت على صفي الدين الحلي وتناولت المجلة فاذا هي « الكتاب » والعدد عددها الممتاز للشهر الاول من شهور السنة . وقد اطلق على هذا الشهر اسم « يناير » سامح الله المقلدين . وحسب عادتي فحصت محتويات «الكتاب» فلفت نظري عنوان هذا نصه :«اتجاه التأليف في عام ١٩٤٥ » . فقلت في نفسي وهل هناك مقياس افضل من اتجاه التأليف للتحقق من اتجاه التفكير ؟ ففتحت الكتاب الى ان وصلت الى الصفحة الثلاثمائة والثانية والتسعين حيث يبتدىء المقال . واذ كانت مصر تسير في طليعة البلدان العربية من حيث التأليف تتبعت سير التأليف واتجاهه هنالك . وها كم ما وجدت من الكتب أتلو عليكم اسماءها وفي هذه الاسماء وصف لها وتعيين . « نهر الرين » ، « الولايات المتحدة » ، « روسيا » . ثلاثة كتب في في مواضيع غير عربية . « قناة السويس » لشنفلد ، « اميركا » لستيفن فنسنت بنيه ، « عصر الخرافة الذي نعيش فيه » لشتولبر ، « جغرافية الحدود » لفاوست ، « جنيف» لبرنرد شو ، خمسة كتب مترجمة . وظهر في مصر ايضاً سبعة كتب في التربية وهي كلها اما مترجمة مثل«في التربية » لبرتراند رسل او ذات مواضيع غريبة عنا

كالتربية الانجليزية لمحمد عطية الابراشي. وما يصدق على هذه يصدق بالاجمال على سائر الكتب التي ظهرت في مصر وعلى ما صدر في غيرها من البلدان العربية .

وخلاصة القول - ما لم تتحرر ارواحنا من ذل العبوديات النفسية كالتقليد مثلاً ، لا يتيسر لنا الاستقلال الروحي ولن نمهد امامنا الطريق الى الاستقلال الفكري ، وبكلمة أخرى الى أسس الاستقلال السياسي . وما دام ادبنا الحديث منقولاً وافكارنا افكار غيرنا ، بقيت أسس الاستقلال السياسي الفكرية متزعزعة .

لقد حان الوقت لتعريب ادبنا ولانشاء رواية عربية حديثة منبعثة من الحياة العربية . ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانو دي برجراك والبؤساء وغيرها من روايات الاجانب. ومن الصعب ان نرتجي من نشء لم يترعرع الا على مثل هذه الروايات ان يشب على عقيدة عربية راسخة . ومن واجبنا ان نهيء للنشء الجديد رواية من طينة عربية نظير الروايات التاريخية التي سالت من قلم الطيب الذكر جرجي زيدان ودمه وروحه . ويا ليت كتابنا المنصرفين وراء الترجمة والنقل يعنون بالرواية العربية ولا سيما تلك التي تنسج لحمتها من حياة العرب في هذا العصر . وتاريخ العرب قديمه وحديثه مفعم بالوحي والالهام ينتظر مصطفى من ارباب الاقلام ليحطم الاصنام ، ويحرر أدب قومه من ربقة الاجانب وتفكير الاعجام .

ولنا في التاريخ العربي خير مثال . فقد مر العرب في دور كانوا فيه نقلة ومترجمين . امتد هذا الدور من اواسط القرن الثامن الميلاد حتى أواخر القرن التاسع . ونقل العرب جل تراث اليونان

الفلسفي والطبي والعلمي والرياضي ،وترجموا للهند وفارس، واخذوا عن اليهود والسريان والاقباط . غير انهم لم يقنعوا بحياة الترجمة والنقل . وسرعان ما استحال هذا العصر الى عصر ازدهار وابتكار وابداع . فسار العرب في طليعة الامم واصبحت لغتهم لغة العلم والفلسفة والتجارة من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر . ولو قنع العرب آنئذ بالترجمة واقتصروا عليها لبقوا تحت وصاية اليونان الفكرية وانتدابهم الثقافي حتى هذا اليوم . وعندي ان العرب اليوم ان بقوا قانعين بالترجمة والنقل بقوا تحت نير الاجانب الفكري وبقوا تحت نيرهم السياسي عرضة للاستعمار والاستعباد. ولن يكون للجلاء معنى او حقيقة اذا أقلعت جنود الحرب الى حيث القت ... وبقيت جيوش الفكر في البلاد . والاستعمار الفكري والانتداب الفكري والوصاية الفكرية أشد نيراً وأنكى سماً من الاستعمارات والانتدابات والوصايات السياسية . فهذه تستعبد الاجسام وتلك تستعبد النفوس وتزهق الارواح .

وقد تولدت من فقدان القبلة الفكرية لدى الشباب العربي مشكلة اخرى تتجلى في سهولة انحرافه عن المبدأ لا سيما عند اصطدامه بالعوامل المادية . فكم من نفس اذكاها زناد المبادىء فاضرم فيها نيران الحماسة والتضحية فما لبثت هذه ان خمدت عندما طمت عليها مياه المصلحة الشخصية وعصفت بها الرياح الصفراء . وقد كان للثقافة اللاتينية في بلادنا اثر سيء من هذا القبيل . فقد افسدت تلك الثقافة اينما حلت جهاز البلاد الاخلاقي والسياسي، فتغلغلت فيه الرشوة وساد فيه الجشع، وفقدت منه الامانة . ولن يكون للجلاء العسكري

معنى او حقيقة حتى يتم الجلاء الثقافي وتجلى القلوب من صدأ الفساد السياسي والتذبذب الاخلاقي .

وقد أدى فقدان القبلة الفكرية لدى العرب وتضارب الفكر المزيفة بهم مع ما طبعوا عليه من الفردية والمغالاه فيها الى آفة اخرى لا بد ان تزول قبل ان تصل العروبة الى هدفها وتستعيد مركزها في التاريخ ، تلك الآفة هي العمل على حدة افراداً . وقد تتجلى هذه الفردية بأوضح مظاهرها وابسطها في اعمال العرب التجارية . فهم يستثمرون اموالهم افراداً - تقوم مصارفهم على الافراد لا على الشركات، وتجارتهم على حوانيت صغيرة ودكاكين اصغر ، فتضيع جهودهم من هذا التفتت وتضمحل . ولم تجتمع كلمة العرب ولم يلتف شملهم حول راية واحدة إلا عندما جاءهم النبي الأمين ورفع امامهم فكرة اعظم منهم ودربهم على العمل والتعاون في سبيلها وحبب اليهم ان يضيعوا انفسهم فيها فوجدوها ، فاستحال ضعفهم الى قوة ، وتفرقهم الى تضامن وقبائلهم الى امة ، ولهجاتهم الى لغة .

واليوم يعيش العرب في عصر علماني تجتاح بلادهم عوامل خارجية جبارة دفعت بها الى معترك القوميات المتطاحنة . وهم يجدون انفسهم لا محور فكريا لهم تدور رحاهم عليه فيوجد في كيانهم جاذبية تحول دون تساقط اجزائه واضمحلالها . ولا يسعهم ان ينظروا الى الوراء لئلا يصبحوا مثل امرأة لوط عمود ملح على قارعة الطريق . عليهم ان يتابعوا المسير وان يستوحوا من تاريخهم ومن مقتضيات مستقبلهم محوراً فكرياً تدور رحاهم حوله فيبقى كيانهم متماسك الاجزاء . وان ينصبوا من كنه تراثهم قبلة روحية

يولون وجههم نحوها .

وانا انصب امام شباب العرب ومحط آمالهم قبلة فكرية روحية هي العروبة بأوسع معانيها . عروبة تمتاز بسعة الصدر ورحابتـــه وكبر النفس وكرمها . وسعت تراث الهنـــد وفارس واليونان واختارت منه ما اختارت (وفي الاختيار دلالة على الحياة والحرية) وحافظت على روح البحث والتنقيب وابقته حياً ، وحملت لواء العلم الصرف لاجل العلم ، وقويت على الابتكار والابداع والاتقان ، وافسحت المجال لمساهمة جميع ابنائها في رفع صرح مجدها على اختلاف مللهم ونحلهم ، وسعت وراء الجوهر دون العرض ، وعلّمت وعملت بتفوق الروح على القوة ، وارتفعت فوق الافراد والعائلات والاقطار ، وهيأت لهم الفرص ليدخلوا خدمتهـــا راضين ، وحببت اليهم ان يضيعوا انفسهم فيها فوجدوها وكانوا هدى للعالمين .

هذه هي قبلتنا الفكرية الروحية . ومتى ولى العرب وجوههم نحوها تتوحـد قوى انفسهم وتستحيل حياتهم من وجود معدوم الغاية والانسجام ، الى حياة ذات غاية ووئام .

عندئذ — ينتصب الشباب العربي ويتقدم لمواجهـة موعده مع المستقبل — مرفوع الرأس ، رابط الجأش ، راسخ الايمان ، قوي الساعد ثابت القدم . لا تستهويه الوظيفة ولا ينحرف عن مبادئه طمعاً في مغانمها . له الرأي ، وله الارادة ، ولديه الاقدام والعزيمة . يتصف بالشرف والصدق والجرأة ، اذا اعترض طريقه دجال لا يحجم عن ردّ تدجيله . وهو فوق كل شبهة أو ريبة ، في السرا والعلانية — هو عربي .